

## الأمر العام بالرحمة والرفق بجميع الخلق

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ١٠٧].

فكان رسول الله ﷺ رحمةً بالخلق أجمعين، إنسيهم وجنهم، رحمةً بالحيوان والنبات والجماد، وأعظم بالرحمة هداية الناس إلى المعرفة، معرفة الخالق ومعرفة الخلق، وتحديد المنهج القويم في عبادة الخالق، ورحمة الخلق والانتفاع بما سُخِّرَ فيهم من خيرات:

١- فَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَضَعُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «لَيْسَ الَّذِي يَزْحَمُ نَفْسَهُ خَاصَّةً، وَلَكِنَّ الَّذِي يَزْحَمُ النَّاسَ عَامَّةً»<sup>(١)</sup>.

٢- وقد أمر النبي ﷺ بالرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات فقال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده»: ٢٥٠/٧ برقم (٤٢٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: ٤٧٩/٧ برقم (١١٠٦٠).

الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ»<sup>(١)</sup>.

قَالَ الطَّبِيبِيُّ: لِأَنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْخَلْقِ رِقَّةُ الْقَلْبِ، وَالرِّقَّةُ فِي الْقَلْبِ عَلَامَةُ الْإِيمَانِ، فَمَنْ لَا رِقَّةَ لَهُ لَا إِيْمَانَ لَهُ، وَمَنْ لَا إِيْمَانَ لَهُ شَقِيٌّ، فَمَنْ لَا يُزْرَقُ الرِّقَّةَ شَقِيٌّ.

«مَنْ فِي الْأَرْضِ» بِصِيغَةِ الْعُمُومِ، يَشْمَلُ: جَمِيعَ أَصْنَافِ الْخَلَائِقِ، فَيَزَحُمُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَالنَّاطِقَ وَالْبَهُمَّ، وَالْوَحْشَ وَالطَّيْرَ<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن بطال المغربي (ت ٤٤٩): فِيهِ الْحَضُّ عَلَى اسْتِعْمَالِ الرَّحْمَةِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ، كَافِرِهِمْ وَمُؤْمِنِهِمْ، وَلِجَمِيعِ الْبَهَائِمِ - الْمَمْلُوكِ مِنْهَا وَغَيْرِ الْمَمْلُوكِ - وَالرَّفْقِ بِهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَغْفِرُ اللَّهُ بِهِ الذُّنُوبَ وَيَكْفِرُ بِهِ الْخَطَايَا، فَيَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ عَاقِلٍ أَنْ يَرْغَبَ فِي الْأَخْذِ بِحِظِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَيَسْتَعْمِلَهَا فِي أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَفِي كُلِّ حَيْوَانٍ، فَلَمْ يَخْلُقْهُ اللَّهُ عَبْثًا. وَيَدْخُلُ فِي الرَّحْمَةِ: التَّعَاهُدُ بِالْإِطْعَامِ وَالسَّقْيِ، وَالتَّخْفِيفِ فِي الْحَمْلِ، وَتَرْكُ التَّعَدِي بِالضَّرْبِ<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي: ٣٢٣/٤ برقم (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) المُبَارَكُفُورِيُّ، «تُحْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ»، بِشَرْحِ جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ: ٥١/٦، تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْوَهَّابِ عَبْدِ الْلطِيفِ، دَارُ الْفِكْرِ.

(٣) ابن بطال، «شرح صحيح البخاري»: ٢١٩/٩، تَحْقِيقُ: أَبُو تَمِيمٍ يَاسِرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، مَكْتَبَةُ الرَّشْدِ.

وقال العارف البونني: فإن كان لك شوق إلى رحمة من الله فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهاائم بعطفك ورفع غضبك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جل فهو صادر عن صفة الرحمة<sup>(١)</sup>.

٣- وقال ﷺ: «ازْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاعْفُوا يُعْفَى لَكُمْ؛ وَيُؤْتَى لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيُؤْتَى لِلْمُصْبِرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»<sup>(٢)</sup>.

(ازْحَمُوا تُرْحَمُوا)؛ لأن الرحمة من صفات الحق التي شمل بها عباده، فلذا كانت أعلاماً تصف بها البشر، فندب إليها الشارع في كل شيء حتى في قتال الكفار والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك. (وَاعْفُوا يُعْفَى لَكُمْ)؛ لأنه - سبحانه وتعالى - يحب أسمائه وصفاته التي منها الرحمة والعفو، ويحب من خلقه من تخلق بها. (وَيُؤْتَى لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ)، أي: شدة هلكة من لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب

(١) المناوي: «فيض القدير، شرح الجامع الصغير»: ٤٢/٤، المكتبة التجارية - مصر، ١٣٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: ٩٩/١١ برقم (٦٥٤١)، والبخاري في «الأدب المفرد»: ١٣٨/١ برقم (٣٨٠).

بآدابه، والأَقْمَاعُ جمع قِمَع: الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملاً بالمائع، شَبَّه استِمَاعَ الذين يستمعون القول ولا يُعَوِّنُهُ ولا يعملون به بالأقماع التي لا تَعِي شيئاً ممَّا يُفْرَغُ فِيهَا<sup>(١)</sup>.

٤- وقد أمر النبي ﷺ بالرفق في كل شيء، ولذلك يجب على المسلم إذا دخل داره أو خرج منها ألا يدفع الباب دفعاً عنيفاً؛ لأن هذا منافٍ للطف والرفق، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»<sup>(٢)</sup>.

والرحمة العامة التي أمر بها النبي ﷺ دائرة أوسع وأشمل من كل معاني المحافظة والرعاية للبيئة الإنسانية، التي يمكن أن نجد دعواها في أي شريعة أو فلسفة، في أي مكان أو زمان غير الإسلام.

(١) الثناوي، «فيض القدير، شرح الجامع الصغير»: ٤٧٤/١.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٠٠٤/٤ برقم (٢٥٩٤).

## مفهوم الخلافة في المنظور الإسلامي

استخلاف الإنسان في الأرض هو أمر من الله -تعالى- بالمحافظة عليها ورعايتها، وتوكيل منه سبحانه للإنسان بإعمارها وإصلاح ما يطرأ عليها من فساد.

١- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٣٠].

٢- قال تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة ص، آية: ٢٦].

يلاحظ في الآية الأولى حرص الملائكة على الأرض -من حيث إنها مخلوقة لله- وخشيئتهم على ما يصيبها من الفساد بفعل الإنسان، (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا). وفساد الأرض يتعلق بالمكان والزمان. (وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ). وسفك الدماء يتعلق بالإنسان، إذن فقد كانت خشيئتهم تتعلق بالإنسان أيضاً؛ لأنه مخلوق لله، يستحق الرحمة والرعاية.

وتظهر الوحدة البنائية في النص من خلال عرضها لثنائية الأرض والإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥] (لِيُفْسِدَ فِيهَا) فساد الأرض (وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) هلاك الإنسان بهلاك الغذاء وهلاك النسل.

فقد علمت الملائكة من خلق آدم أنه سيكون مختاراً، يختلف بذلك عن غيره من الكائنات والمخلوقات، والمختار يجوز في حقه ورود المخالفة للمنهج، على عكس الكائنات التي تُؤمَرُ فتطيع، تُعَلَّمُ فتعلم، فلا يمكنها مخالفة المنهج، ولا تتعلق إرادتها بذلك. ونظرت الملائكة إلى ما رُكِبَ في الإنسان من انفعالات ورغبات وشهوات، وظننت أنه حتماً سيدفعه اتباعها إلى النزوع إلى التقاتل والهزج من أجل السيطرة والتسلط.

ولكن الملائكة حينما بين لهم الله -تعالى- ما خفي عنهم في خلق آدم من قدرة على تحصيل العلم والمعرفة وإعادة تراكيبها واستدعائها (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا).

ويستفاد من ذلك أن فساد الإنسان والبيئة متعلق بفعل الإنسان وسلوكه، فإن غلبت عليه الشهوات والهوى، وحاد عن العقل والعلم

كان هلاكاً لنفسه ولغيره، وإن غلب عقله وتدبره، وسعى لتحصيل العلم والحكمة فإنه سيوافق السنة والمنهج (الحق) الذي قام عليه الخلق، ويصير فعله إعماراً وبناءً وإبداعاً.

ويلاحظ في الآية الثانية ما جاء فيها من ذكر الخلافة والأرض والحق، فالحق هو الله - سبحانه وتعالى -، والحق هو الذي قام عليه الخلق، فإن الله - سبحانه وتعالى - لم يخلق شيئاً عبثاً أو لعباً، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِنَعْبَثَ ۖ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآيات: ١٦-١٨].

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [سورة المؤمنون، الآيات: ١١٥-١١٦].

فالله - سبحانه وتعالى - عندما جعل داود خليفة في الأرض طلب منه الحكم بالحق، والحق مرادف العدل والصلاح وضد العيب واللعب والفساد، وأصل الملك الذي أوتيته داود خليفة هو القيام بالحق؛ ولذلك أعقبه بقوله: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ)، والهوى هو

الجانب الذي ظهر للملائكة أولاً في خلق آدم، فكان حكمهم على الإنسان بأنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء. والحق هو العقل والعلم، وهو الجانب الذي خفي عن الملائكة أول الأمر.

وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - النبي محمداً ﷺ أن يحكم بالحق والقسط؛ لأن ذلك طريق المحبة والقربى من الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة، آية: ٤٢].

٣- وسيادة الإنسان على الكون سيادة انتداب، وليست سيادة تملك وتسلط مُطلق، فالإنسان قائم بما يقوم به المؤكّل من الحفاظ والرعاية، وذلك مفهوم الخلافة الذي جاء به الإسلام.

ولذلك فالإنسان مسئول عن الأمانة التي حملها، مسئول عن إحسانه وإتقانه أو إساءته وإفساده، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [سورة الملك، آية: ٢].

وقال تعالى في نفس السورة بياناً للإحسان في العمل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [سورة الملك، آية: ١٥].

فقد سَخَّرَ اللهُ الأَرْضَ وجعلها مُدَلَّلَةً للإنسان كي يستفيد من خيراتها، فوجب عليه العمل والسعي؛ لتحصيل نفعها والإصلاح فيها.

وقد جاء في سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ما يؤكد على أهمية العمل بالنسبة للإنسان، وأهمية التربية على المنهج الذي يمنح الإنسان العزم والقوة والكرامة في حياته باستهدائه سُبُلَ العمل الشريف:

(أ) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ فَقَالَ: «أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟» قَالَ: بَلَى جَلَسْتُ<sup>(١)</sup> نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ<sup>(٢)</sup> نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ: «أَتَيْتَنِي بِهِمَا». فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ: «مَنْ يَزِيدُ عَلَيَّ دِرْهَمٍ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَاذْبُدْهُ إِلَى أَهْلِكَ<sup>(٣)</sup>» وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قُدُومًا<sup>(٤)</sup> فَأَتَيْتَنِي بِهِ». فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ

(١) (الجلُّس): من معانيه: أنه اسم لما يسط تحت حُرِّ الثياب.

(٢) (القَعْبُ): قَدَحٌ من خَشَبٍ مُقَعَّرٌ.

(٣) أي: ادفعه إلى أهلِكَ.

(٤) (القُدُوم): هو آلة النجارة.

فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُوْدًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اَذْهَبْ فَاحْتَطَبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيْتَكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا». فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطَبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ ذَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةَ نَكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَضْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُزْمٍ مُفْطِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ»<sup>(١)</sup>.

(ب) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ<sup>(٢)</sup> فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَتَأَلَّتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(٣)</sup>.

(١) (الدقغ): هو الفقر الشديد.

(عُزْمٌ مُفْطِعٌ): هو أن تُلزِمَ الديون الفظيعة الفادحة حتى تتفرع به؛ فتحل له الصدقة، فيعطى من سهم الغارمين.

(موجع): أي يتحمل حمالة في حقن الدماء، وإصلاح ذات البين، حتى يؤديها. انظر: بدر الدين العيني، «شرح سنن أبي داود»: ٣٨٩/٦ - مكتبة الرشد.

(٢) أخرجه أبو داود: ٥١٦/١ برقم (١٦٤١) بهذا اللفظ، والترمذي: ٥٢٢/٣ برقم (١٢١٨) مختصرًا، وقال: حديث حسن.

(٣) (الصبرة): هي ما جُمع من الطعام بلا كيل، والمراد بالطعام: جنس الحبوب المأكول.

(٤) أخرجه مسلم: ٩٩/١ برقم (١٠٢).

فدعوة الإسلام دعوة إلى العمل الشريف، ورسالته تقول للإنسان: اعمل واجتهد في التنمية والإصلاح، وسيرى الله عملك ورسولهُ، وستجازي عليه، ولكن بشرف ودون غشٍ أو خداع. فالعمل بناء، والشرف منهج، والعمل لا يكون إيجابيًا إن افتقد الشرف والأمانة.

فالغش يهدم السلام الاجتماعي ويُهْلِك الحركة الاقتصادية؛ لإحداثه حالة من انعدام الثقة بين المُتبايعين، كما يقضي على السلام النفسي: بإشاعته الخوف والقلق، وإلقاءه التوجس والرَّهبة بين الناس، وكل ذلك من مظاهر الفساد في حياة الإنسان.





## دعوة الإسلام إلى النظر والتأمل في الكون

وهي دعوة للمحافظة على البيئة باكتشاف أسرارها ورعاية جمالياتها، فالحركة في الكون تُعدُّ خطابًا واضحًا ورسالة دالة على عظمة الخالق، ولكن لا يستطيع قراءتها إلا ذوو النظر والعقل وأصحاب التأمل والفكر، ولذلك كان العلماء المؤمنون أكثر الناس يقينا في وجود الحق ووحدانيته.

ومصادر المعرفة لدى المسلم تتوزع بين الوحي والكون، ولا يصل المسلم إلى اليقين إلا عندما يأخذ عن كليهما ويحسن النظر فيهما.

والوحي والكون كلاهما من الله من عالم الأمر ومن عالم الخلق، خاطب بهما عقل الإنسان وحسّه، ولكن الوحي تميّز بالمباشرة والوضوح في توجيه الإنسان وتحديد المنهج السويّ، الذي يرسم له خُطَّةً يسلكها في تعامله مع الكون ومع نفسه أيضًا، بالشكل الذي يجعله يستفيد ويستمتع بما سُخِّرَ له في الكون.

والنظر والاعتبار في الكون والوحي فرض واجب في الشريعة

الإسلامية، بل هو من أول الواجبات، فهو طريق مباشر يوصل العبد بربه، ومن ناحية أخرى فالنظر حق للفرد في مجتمعه الإسلامي؛ لأنه طريقه إلى العلم والمعرفة، فلا بد أن تُيسر له كل الأسباب والمقومات التي تُمكنه من الإحسان فيما تُصدّر له من بحث. فإن فقه أفراد المسلمين وجماعاتهم إلى هذا الواجب ارتقت علومهم ويزادت معارفهم، وكانت بلادهم نموذجًا للحضارة الإنسانية المتكاملة.

١- والمسلم مدعوٌ بنصّ الوحي إلى النظر في جمال الكون وإحكام صنعه:

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِذْجَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَرْجَعُ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاثِرًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ ﴿﴾ [سورة الملك، الآيات: ٣-٥].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴿﴾ [سورة السجدة، آية: ٧].  
وقال تعالى: ﴿سَرَّيْهُمُ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿﴾ [سورة فصلت، آية: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ



الْمُسْحَرِينَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ [سورة البقرة، آية: ١٦٤].

ويلاحظ ختام الآية بقوله: (لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) مما يعني أنه لا يَنْتَفِعُ بتلك الدعوة الصريحة إلى التأمل والنظر في الكون، فيَصِلُ من ورائها إلى الإيمان بالخالق وإدراك سُنَّتِهِ في خلقه - إلا أصحاب المنهج العقلي الموضوعي، أولئك الذين يجعلون عقولهم مسيطرةً على رغباتهم وشهواتهم، وأولئك الذين يُهْدَوْنَ إلى الحق الذي قام عليه الوجود.

ويلاحظ في الآية أنها تحدثت عن ثلاثة أشياء يمثلون الوجود، وهي: المكان (الأرض والسماء)، والزمان (اختلاف الليل والنهار)، والماء.

٢- وفي عبادات المسلمين ما يقوم أصله على التأمل والتفكير والإجلال لما في الكون من خلق وإبداع، وذلك كصلاة الكُسُوف والخُسُوف، وصلاة الاستسقاء.

قال ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا»<sup>(١)</sup>.

(١) متفق عليه، البخاري: ٣٥٣/١ برقم (٩٩٤)، ومسلم: ٦٢٨/٢ برقم (٩١١).

٣- والنظر والاعتبار يوجب على الإنسان الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته، فمن الآيات التي تحدثت عن الإرادة العليا لله في الكون، وأنه سبحانه لم يترك شيئاً للصدفة أو الطبيعة تتحكم فيه وتُدبّر شؤنه بنفسها:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ [سورة النمل، آية: ٦١]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [سورة الفرقان، آية: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان: ١٩-٢٠].

فالبحران مصدرهما السماء، وكلاهما من ماء، فسبحان من ميّز لكلٍ منهما: مكانه، ومقداره، وتوزيعه في مساحات اليابسة، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر. وكلاهما على نفس الدرجة من الأهمية للحياة، وفي بغي أحدهما على الآخر فساد عظيم.

٤- ودعت الآيات الإنسان إلى النظر في طعامه:

قال تعالى: ﴿فَايَعْتَبَرُوا مَا آتَاكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتُمْ بِأَعْيُنِنَا ۗ سَبَّحْتَ لِلَّهِ مَا نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ مُنِينٍ ۗ وَجَعَلْنَا الْوَيْلَ لِمَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ نَبَأًا﴾ [سورة الكهف، آية: ١٩].

(فَلْيَنْظُرْ)، أي: فليبحث ويفتش عن الطعام الصالح الزكي، وفي ذلك دعوة إلى الانتقاء الذي يدعو الصانع إلى تحسين صناعته والزراع أن يهتم بزراعته، طالما أن المسلم سيبحث عن الأجود والأحسن، وسيتدرب على التذوق والاختيار، ولن يرضى من البيئة عطاءً إلا أجوده وأحسنه. ولن يقبل ممن يقوم على الرعاية والتنمية إلا أحسن العمل وأتقنه.

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جِبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًّا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّوْنَا وَمَخَلَّأْنَا ﴿٢٩﴾ وَحَدَّائِنًا ﴿٣٠﴾ وَفَكَهَّةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تُنْمِكُوا ﴿٣٢﴾ [سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢].

فالنظر في الآية الأولى: تعلق بمسألة الانتفاع والتسخير، وفي الآية الثانية: تعلق بمسألة الاستدلال والاستهداء المعرفي، فالأولى: تستلزم الحُصَّ على العمل والإحسان، والثانية: تستلزم الإيمان بخالق هذا الكون وصاحب النعم المودعة فيه؛ فقد سَخَّرَ له سبيلَ الطعام مُيَسَّرًا مُدَلَّلًا.

٥- ودعت الآيات الإنسان إلى التفكر في خلق الحيوان

وتسخيره لنفع الإنسان:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطُغْيَانِهِمْ مِنْ بَيْنِ قُرْبَيْهِمْ وَذَمِّرْنَا بَلَاءًا خَالصًا سَائِغًا لِلشَّرِيبِينَ ﴾ [سورة النحل، آية: ٦٦].

ولا يمكن للإنسان معرفة قدرة الخالق إلا بالنظر والاعتبار في ملكوته، وفي الآية دلالة على قدرة الله على استخلاص الصلاح والخير والصفاء من رَجِم ضده، فالحق - سبحانه وتعالى - يضع يده الإنسان على الآيات والمعاني التي تجعله قادرًا على أداء الأمانة التي حَمَلَهَا، وذلك لا يكون إلا بالسعي إلى إعمار الكون بإخراج المصالح والحقوق والخيرات من رَجِم المفسد والشور.

٦- ودَعَت الآياتُ الإنسانَ إلى النظر في الرياح باعتبارها أول حركةٍ إعمارية في الحياة:

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [سورة الحجر، آية: ٢٢].

وفي الآية هدايةٌ إلى دورِ الرِّيحِ في النَّماءِ والحياة، بأمرٍ من أرسلها وجعلها سببًا في تلقيح النبات وزيادته، وليست الرياح بذاتها تفعل، وإنما هي فقط تأتمر بأمرٍ مُرْسِلِهَا، وَفِعْلُهَا يَأْتِي تَبَعًا لِأَمْرِهِ. ودليل ذلك أنها قد تأتي وبالأدماز لقوم، وفي نفس الوقت خيرًا

ولقاحًا لآخرين، فهي مُسَخَّرَةٌ ومؤتمرة، وليس فعلها من خير أو شر بإرادة منها.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِجُ سَعَابًا فَسُقْنْتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مِّمَّنْ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [سورة فاطر، آية: ٩].

فالرياح تُعتبر المرحلة الأولى في دورة الحياة الأرضية؛ ولذلك نرى الآية ابتدأت بلفظ الجلالة تأكيدًا على أنه سبحانه المتفرد بإرسالها مُحَرَكَةً للسحاب مبتدأةً لحركة الحياة على الأرض.

٧- ودعت الآيات الإنسان إلى التفكر في جماليات الكون، وفي ذلك دعوة للمحافظة على ما في البيئة من منافع وجمال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سورة الحج، الآيات: ٥-٦].

إذن فهناك ارتباط بين الجمال والحق، فالحنق يقتضي من الإنسان الحفاظ على أصل الوجود وعلى جمالياته.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة لقمان، آية: ١٠].

وقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَابٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴿٦٢﴾

[سورة النمل، الآيات: ٦٠ - ٦٢].

وفي الآية ارتباط بين الجمال وبين الخلافة في الأرض، فقد جعلنا المولى - تبارك وتعالى - خلفاء في الأرض؛ من أجل الاستمتاع بهذا الجمال، وتنمية وجوده، والمحافظة عليه. ووضوح هذا المفهوم في التصور الإسلامي من شأنه أن يجعل المسلم مُبْدِعًا في كل صناعة أو عمل.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلَ وَالْإِعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

[سورة النحل، الآيات: ٢-٨].



بدأت الآيات بالحديث عن الحق الذي قام عليه خلق السموات والأرض، ثم تحدثت عن خلق الإنسان من نطفة، ثم تبادلت الآيات الحديث عن الضروريات والتحسينيات، أي المنافع المباشرة والجمال والزينة.

فالآية الخامسة: تحدثت عن الدِّفء والأكل والمنافع في الأنعام، والآية السادسة: تحدّثت عن البهجة التي يُحصِّلها الإنسان من نظره إلى جمال الأنعام، والآية السابعة: عادت تتحدث عن منفعة الأنعام في حَمَل أثقال الإنسان إلى المسافات التي لا يتيسر له بلوغها إلا بحصول المشقة البالغة، والآية الثامنة: تحدثت عن المتعة في ركوب الأنعام للتنزه والتزيُّض، ومن أجل الزينة والمتعة. فقد تحدثت الآية السابقة عن الحمل، أي: النقل، فتكون المِنَّة في (لِتَرَكَبُوهَا) هي الجمال واللذة.

وعلى الإنسان الاستفادة من التسخير الضروري والجمالي حتى تحصل له الصحة المادية والمعنوية، الجسدية والنفسية والعقلية، وعليه حينها أن يحافظ على البيئة في بُعديها: المنافع، والجماليات. وعليه أن يعمل ويحسن ويتقن ما يحقق له المنافع، ويحقق له الإبداع الجمالي الذوقي.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُتَخَلِّفًا أَلْوَانَهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾  
 وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿﴾ [سورة فاطر، الآيتان: ٢٧-٢٨].

مما يعكس أن رَوْحَ الله في خلق الكائنات صَمَّتِ التنوعَ الشكلي،  
 والتناسقَ اللوني، مما يحدث انبهارًا ومتعة بصرية لا فطور فيها.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنَ كُلِّ نَاقِلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿﴾ [سورة فاطر، آية: ١٢].

سَخَّرَ لنا الشراب العذب والمِلح واللحم الطري، ويلاحظ هنا الأوصاف، فالماء العذب سائغ شرابه، والمِلح أُجاج، واللحم طري، مما يعني أن المولى - سبحانه وتعالى - لم يَهَبْ لنا مُقَوِّمَاتِ الحياة فقط بل جعل فيها اللذة والجمال، ثم أعقب ذلك بذكر المِنَّة في خلق الحليّة المُسْتَكِنَّة في قاع الأنهار والمحيطات كاللؤلؤ، نَبَسَهُ لِيَتَجَمَّلَ به وتَنَزَّيْنَ.

## دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض

١- قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكَ فِيهَا﴾ [سورة هود،

آية: ٦١].

أي أمركم بعمارة الأرض، والعمارة تشمل كلَّ عمَلٍ فيه إصلاح للأرض وتوفيرُ ضروريات المعاش فيها. والكون كلُّه بكل مظاهره وموجوداته مُسَخَّرٌ للإنسان، قائم على خدمته؛ فوجب عليه عمارته والمحافظة عليه.

وإعمار الكون مظهرٌ تتحقق فيه عبودية الإنسان لخالقه؛ لأن المعرفة بأسرار الكون توصل الإنسان إلى التماس نصيب من حكمة الله في الوجود، ويحتاج الإنسان من أجل القيام بوظيفة الخلافة، وتنفيذ أمر الخالق بإعمار الأرض - أن يُطِيل التَدَبُّرَ والاعتبارَ في العلاقات الكلية والجزئية التي تجمع مفردات الكون وتتحكم فيه، وبمعنى آخر: إن صلاح منهج الإنسان في الإعمار مرتبط بتكوين نظرة كُليَّة عن السبب الأول في وجود الخلق، وعن طبيعة العلاقة التي تربط الإنسان بذلك السبب، والعلاقة التي تربطه بِبَقِيَّةِ الكائنات في الوجود.

ويمكن فهمُ إعمار الأرض على أنه بذلُ الجهد لإقامة مجتمع فاضل عادل، تتحقق فيه للإنسان الكرامة التي أَرادها اللهُ له، وتتحقق للإنسان فيه الحرية التي هي مناط المسؤولية، وإقامة مجتمع: يسالم الطبيعة، ويسالم الإنسان، وتُسود فيه قيم المحبة والرحمة.

٢- ولا بد أن تشمل عملية الإعمار المطلوبة شرعاً جوانب الحياة الثلاث: المادّة، الرُّوح، العقل، بتوازن وانضباط، بحيث لا يطغى جانب على آخر، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة وأقام المسجد، وكان أول إعمار يقوم به في المدينة، وكان عملاً إعمارياً شمل الجوانب الثلاث من الحياة، كان إقامةً للبُنيان وللإنسان، فقد كان مكاناً، يتجمع فيه المسلمون، ويلجأ إليه المعوزون، وتُسْتَقْبَل فيه الوفودُ، وتُؤدَّى فيه العبادات الروحية، وتُلْقَى فيه الدروس والتعاليم التي ترسم المنهج، وكانت تُعقَد فيه الأوليّة، وتوزعُ فيه المهامُ العسكرية، وتُرسم فيه الخططُ، وتمارسُ فيه الدعوةُ إلى الدين.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَعَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٤١].

والشاهد في الآية أنها جمعت بين مخاطبة العقل بالدعوة إلى النظر والتأمل في القدرة والحكمة والجمال والتنوع، وفي ذلك سعادة العقل بتحقيق المعرفة والعلم، وبين مخاطبة الحواس ودعوتها إلى الأكل، وفي ذلك استمتاع الجسد بالتسخير المادي، وبين مخاطبتها الروح ودعوتها إلى التزكية والتهارة حيث أمرت الإنسان بالعطاء والبذل، مما يحقق للنفس والروح سعادتها وطمأنيتها. وختمت الآية أوامرها بعدم الإسراف، مما يعني: ضبط العلاقات والمقادير.

٣- وعملية إعمار الأرض كما يتصورها الإسلام ذات شقين، الأول: يتعلق بصالح المنهج، والثاني: يتعلق بإتقان العمل والبناء وبذل الوسع فيه.

ولا بد من انضباط كل من الشقين حتى تنجح تلك العملية، وأساس صلاح البناء صلاح المنهج:

(أ) قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَدِلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [سورة الحج، آية: ٤٥] (وهي ظالمة): فساد المنهج؛ والذي أدى إلى فساد البناء والبيئة.

قال الطبري: «فَبَادَ أَهْلُهَا وَخَلَّتْ، وَخَوَتْ مِنْ سُكَّانِهَا، فَحَرِبَتْ وَتَدَاعَتْ، وَتَسَاقَطَتْ عَلَى عُرُوشِهَا، يَعْنِي عَلَى بَنَائِهَا وَسُقُوفِهَا...

وَمِنْ بَيْتٍ عَطَلْنَاهَا، بِإِفْنَاءِ أَهْلِهَا، وَهَلَاكِ وَارِدِيهَا، فَاَنْدَفَنْتْ وَتَعَطَلَّتْ، فَلَا وَارِدَةَ لَهَا، وَلَا شَارِبَةَ مِنْهَا... (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ): رَفِيعٍ بِالصُّخُورِ وَالْجِصْرِ، قَدْ خَلَا مِنْ سُكَّانِهِ؛ بِمَا أَذَقْنَا أَهْلَهُ مِنْ عَذَابِنَا بِسُوءِ فِعَالِهِمْ، فَبَادُوا وَبَقِيَتْ قُصُورُهُمُ الْمَشِيدَةُ خَالِيَةً مِنْهُمْ»<sup>(١)</sup>.

(ب) وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا

لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [سورة الكهف، آية: ٥٩].

وقد ذكر ابن خلدون في «مقدمته» فصلاً في أثر الظلم وما يفعل في العمران والحضارة: (فصل في أن الظلم مُؤَذِّنٌ بخراب العمران)، قال: «واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مُؤَذِّنٌ بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المُراعِيَةُ للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من: حفظ الدِّين،

(١) الطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ «جَامِعُ الْبَيَانِ، فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ»: ٦٥٤/١٨، تَحْقِيقُ: أَحْمَدُ

شَاكِرٌ، مَوْسَسَةُ الرِّسَالَةِ ٢٠٠٠ م.

والنفس، والعقل، والنسل، والمال»<sup>(١)</sup>.

ومن المُشاهد أنه إذا صاحب التَّقَدُّمَ المَادِّيَ البِنَائِيَّ تَخَلَّفَ عن القِيمِ والفضائل الأخلاقية - فَسَدَتِ البيئَةُ، وانهدمت الحضارة، ففساد المنهج يمثل اصطدامًا للإنسان بالكون؛ يؤدي حتمًا إلى شقاوته، ومعاناته للقلق والخيرة؛ وذلك لأن الكون له منهج وسُنَن، وله علاقة بخالقه، فيها تسييح وسجود، فإذا تصرف الإنسان بعشوائية وفوضاوية دون نظام أو سُنَّة، وإذا قطع علاقته بخالقه ومصدر الوحي والمنهج - كان مصيره إلى الجهل؛ لأنه قد انقطعت صلته بمصدر المعرفة: الكون، والإله. وصار متصادمًا مع كل الكائنات من حوله، يُفسد حياتها وحياته من حيث يدري ومن حيث لا يدري.

(ج) وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنهَوْنَ

عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ

وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ [سورة هود، الآيتان: ١١٦-١١٧].

(١) مقدمة ابن خلدون: ٦٩٩/٢، تحقيق: د/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة

والآيات تشرح مَنهَجًا مُحَكَّمًا مترابطًا، غاية أنه ينهى الإنسان عن الظلم، ويوجب عليه دفعه بالحق.

(وَكَاثِرًا مَّجْرِمِينَ): مباشري الفسادِ بالظلم والإجرام، فسبب استئصالِ الأممِ المُهْلَكَةِ فشُوُّ الظلمِ واتباعُ الهوى، مع تركِ النهي عن المنكرات.

(د) وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [سورة محمد، آية: ٢٢].

إن تَوَلَّيْتُمْ عن المنهج الإلهي ستكون نتيجة أفعالكم مؤديةً إلى الفساد والهدم والقطيعة، الفساد على مستوى الأرض، والقطيعة على مستوى الإنسان، مما يُذَكِّرُ بالوَحدةِ البنائية التي أشرنا لها من قبل.

(هـ) قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥].

فالتَّوَلَّى والإعراض عن المنهج الحق يؤدي حتماً إلى الفساد البيئي على مستوى الإنسان ومستوى الأكوان.

والوَحدةِ البنائية في النص القرآني إضافة إلى الوَحدةِ البنائية

في خلق الأكوان لهي أكبر الدلائل على وحدانية الخالق الذي له الخلق والأمر.

٤- والمولى - سبحانه وتعالى - يقرن دائماً الإيمان (المنهج) بالعمل الصالح (البناء)، ويقرن الحق في الانتفاع بالواجب في العمل والإحسان:

(أ) قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ٥١].

(ب) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [سورة النمل، آية: ١٩].

فالنبي سليمان عليه السلام لما وجد الطبيعة قد استجابت له وسخرت له تسخيرًا خاصًا، فصار يعلم لغة تخاطب الحشرات والطير - دعا ربه أن يكون شاكرًا له على هدايته إلى صلاح المنهج، وأن يعينه على الاستمرار في أداء العمل الصالح (البناء) الذي يرضاه الله.

(ج) وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة ص، الآيتان: ٢٧-٢٨].

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات اتبعوا المنهج وقاموا بالبناء، وهم الذين يؤمنون أن الله - سبحانه وتعالى - قد أقام خلق السموات والأرض على الحق والعدل، ولم يَخْلُقْهُمَا عَبَثًا أو لعبًا أو باطلاً، أما المفسدون في الأرض فهم الذين كفروا بالمنهج ولم يعملوا الصالحات؛ وذلك لسوء ظنِّهم واعتقادهم بربهم أنه خَلَقَ الكون عَبَثًا وباطلاً.

## دعوة الإسلام إلى النهي عن الفساد والإفساد

النظام الكوني له سُنن وقوانين مقدره محكمة إن خرج عنها قيد أنملة فَتت أجزاءه وتحطمت، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ بِبُغْيٍ لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس، آية: ٤٠].

وقد خلق الله -عز وجل- الكون وجعله يقوم على علاقات توافقيّة بين أجزائه، جاءت صورها في المدّ والجزر، وفي قوى الجذب والطرْد التي تحكّم حركة النجوم في أفلاكها وحركة الإلكترونات في ذراتها، ولو تغلبت قوى الجاذبية على قوى التنافر أو العكس لحدث اختلال عظيم وفساد في الكون.

وهكذا فالنفس البشرية في علاقاتها مع الآخر -سواء كان جماداً أو إنساناً- مُركّبة من قوى الجذب والطرْد، وتأتي صورها في الحب والكره أو السلام والحرب، ولا بد أن يكون الإنسان متوازناً في علاقاته حتى لا يُحدِث خللاً أو اضطراباً في حياته.

١- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ [سورة  
البقرة، آية: ٢٧].

(يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ)، أي: يُفْسِدُونَ المنهج، (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)، أي: يحدثون اختلالاً في العلاقات التوازنية بين مفردات الوجود، يقطع ما حقه الوصل ووصل ما حقه القطع، فتضطرب علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالله، وعلاقة الإنسان بالكون، وهذه المعادلة تكون نتيجتها الخُسران والبوار في الدنيا بفساد الحياة وتحصيل الشقاء، وفي الآخرة بضياع النعيم.

٢- وقد جعل الله الأصل في فطرة الإنسان وفي خلق الأكوان الصلاح والانتظام، وإنما يظهر الفساد في حياة الإنسان والكون بفساد الفطرة الإنسانية التي تدعو الإنسان إلى المحبة والسلام، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الروم، آية: ٤١].

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إلى الأصل الذي تركوه، وهو أصل الصلاح، ورجوعهم يكون بالإصلاح لما أفسدوه في حياتهم، وباستهدائهم المنهج، وإحسانهم العمل.

٣- وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَ تَنْكُم بِئِنَّةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا  
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي  
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة  
الأعراف، آية: ٨٥].

أمر نبي الله شعيب عليه السلام قومه بأن يتيموا للناس حقوقهم  
ولا يتقصوهم إياها. وأمرهم بضبط الميزان هو ضبط العلاقات،  
وهو الحكم بالحق والعدل والمساواة، وهذا صلاح الإنسان  
والأرض على السواء.

٤- وأمر الله قارون عندما طغى وأفسد وقطع العلاقات مع  
الخلق والخالق، وظن أنه يستطيع الاعتماد على نفسه وجوداً  
وحفاظاً- فقال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِغِ الْفَسَادَ فِي  
الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص، آية: ٧٧].

٥- وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ  
وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ [سورة البقرة، آية: ١١٤].

لا أظلم ولا أفسد ممن منع الإصلاح الذي يقيمه أولياء الله في  
بيوت الله، بذكره وتعليم منهجه، ولا أظلم ممن سعى في خرابها،

مادياً بإزالة البنيان، ومعنوياً بالاعتداء على دورها الإصلاحي، أو تهميش دورها في المجتمع حتى تصبح عاجزة عن تزكية النفوس وتلقينها العلم والمعرفة اللذين يَهْدِيَانِ الإنسان إلى إدراك الحق والعدل والصلاح، وفي ذلك اعتداء على حرية الإنسان وحرية العقيدة.

ولو أخذنا لفظ (مَسْجِدَ اللَّهِ) على عمومه بمعنى الأرض كلها؛ فقد جعلت الشريعة الأرض مسجداً وطهوراً، بنص رسول الله ﷺ - لكان تأويل الآية: لا أظلم ممن سعى في الأرض فساداً باعتدائه على المنهج والفكر أو باعتدائه على البيئة والبناء الحضاري الإنساني.

٦- وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٥٦].

٧- وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿ [سورة الشعراء، الآيتان: ١٥١-١٥٢].

٨- ونهى النبي ﷺ أصحابه عن الفساد في الأرض، فأوصاهم وهم يستعدون للقاء العدو: «أَلَا تَعْلَمُونَ وَلَا تَعْدِرُونَ وَلَا تَمْتَلُونَ»

وَلَا تَقْتُلُوا وِلْدَانَكُمْ<sup>(١)</sup> . [وَلَا تَحْرِقُوا كَنِيْسَةً، وَلَا تَغْفِرُوا نَحْلًا]<sup>(٢)</sup> .

وهذه الوصية كررها أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- لجيش أسامة بن زيد حين قال: وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجْرًا مُشْمِرًا، وَلَا تُحْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَغْفِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُفْرِقَنَّهٗ، وَلَا تَعْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ<sup>(٣)</sup> .

فالمسلم صاحب رسالة سلام لكل شيء، وليس حربًا على الطبيعة أو على الإنسان، وليس عابثًا أو مُدْمِرًا.

### العلاقة بين الحب والفساد:

وإنه ليوجد ارتباط عكسي في آيات الله بين الفساد والحب.

قال تعالى: ﴿وَالْقِتْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدُوَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة، آية: ٦٤].

(١) أخرجه مسلم: ١٣٥٦/٣ برقم (١٧٣١).

(٢) وهذه الزيادة أخرجه عبد الرزاق في «مُصَنَّفَه»: ٢٢٠/٥ برقم (٩٤٣٠).

(٣) أخرجه مالك في «المَوْطَأُ»: ٤٤٧/٢ برقم (٩٦٥).

العداوة والبغضاء تؤدي إلى الحرب والاعتداء، وهي سعي في الأرض بالفساد.

و(الْمُفْسِدِينَ) في قوله: (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) اسم فاعل من الفعل الرباعي أَفْسَدَ، وفيه إشارة إلى أن الحب والسلام والصلاح هو أصل الخلق، والعداوة والبغضاء هي إفساد للأصل، وفي هذه الآية يخبرنا سبحانه عن عدم حبه للفاعلين الفساد، وفي آية أخرى أخبرنا سبحانه عن عدم حبه لجنس الفساد فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥].

وأمر الشرع الإسلامي بحماية الإنسان من نفسه، ولم يُعْطِه الحق في قتلها أو إفسادها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٩٥].

فالله - سبحانه - يحب المحسنين ولا يحب المفسدين، يحب المُقْسِطِينَ ولا يحب المُعْتَدِينَ.

## الإسلام والنهي عن الإسراف

الإسراف يعتبر تبديدًا لموارد الحياة، وقد نهى الله عنه.

١- قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ

اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٦٠].

فقد جعل - سبحانه وتعالى - لكل سببٍ من بني إسرائيل مَشْرَبًا من الحَجَرِ، وأعلمهم به كي لا يطغى سببٌ على حق غيره، وقد فعل ذلك - سبحانه - لما علمه من أمرهم من كثرة الاختلاف وكثرة التطلع إلى نصيب الغير، ولكي لا يسرف أحدهم في الانتفاع بمشربه طامعًا في الاعتداء على حق غيره في انتفاعه بمشربه، ثم أعقب - سبحانه - ذلك بالنهي عن الفساد والذي يؤدي إليه الإسراف والاعتداء على حق الغير في الانتفاع.

فالإسراف يعتبر استنزافًا لموارد البيئة، ويؤدي حتمًا إلى تشويهها، ويهدد وجود الإنسان حاضرًا ومستقبلاً. وقد وردت آيات عديدة تنهى عن السرف، وتأمّر الإنسان بالوسطية والاعتدال:

٢- قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآيات: ٢٦-٢٧].

٣- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء، آية: ٢٩].

٤- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان، آية: ٦٧].

٥- وقال تعالى: ﴿يَنْبَغِيٰ ءَادَمَ حُدُوءَ زَيْنَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٣١].

والإسراف اعتداء على حق الآخرين في الحياة، وعلى حقهم في تحصيل ضروريات العيش، كالأكل والشرب من رزق الله.

## الإسلام والأمر بالمشاركة في الانتفاع بما سَخَّرَهُ اللهُ في الكون

ومفهوم التسخير الإلهي كما يتضح في المنظور الإسلامي يُوجِب المساواة والمشاركة بين الناس جميعًا في التمكين من الانتفاع بمنافع الكون، وفي توفير القدر اللازم لاستمرار حياة الإنسان.

١- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة

البقرة، آية: ٢٩].

والآية فيها أكثر من دلالة على العموم، عموم النفع لعموم الجماعة الإنسانية، فالضمير في (لكم) والاسم الموصول (مَا) و(جَمِيعًا) فيها دلالات العموم. و(جَمِيعًا) في مكانها من سياق الجملة يَصِحُّ أن تكون تأكيدًا على العموم الذي أفاده الاسم الموصول، ويصح أن تكون تأكيدًا على الضمير في (لَكُمْ) فيكون التأويل حينئذ إما: هو الذي خلق لكم جميعًا ما في الأرض. أو: هو الذي خلق لكم جميع ما في الأرض.

والاشتراك بين الناس جميعاً في أحقية الانتفاع بضروريات الحياة أوجبه الشريعة الإسلامية من منطلق المساواة في الإنسانية؛ ولذلك فيجب على المسلم أن يتعاون مع غيره في القيام بواجبات المحافظة على البيئة ورعايتها، كما اشتركا في حقوق الانتفاع بخيراتها، ولكن المسلم يتحمل واجبا أكبر من غيره، حيث ألزمته الشريعة تحمّل واجب الدعوة إلى المنهج السوي والدين القويم، والذي يمثل الشق الآخر من عملية الإعمار.

٢- وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٢٤].

(وَلَكُمْ)، أي: لجميعكم، وتفيد عموم الإنسان.

(فِي الْأَرْضِ)، أي: جميع الأرض، وتفيد عموم المكان.

(مُسْتَقَرٌّ)، أي: موضع استقرار وأمان تتوفر فيه الضروريات الحياتية: المادية من غذاء ومُتَنَفِّسٍ وحركة، والمعنوية من احترام وتكريم وحرية وعدل.

(وَمَتَعٌ)، أي: موضع تتحقق فيه جماليات وتحسينات تُوفِّرُ للإنسان الراحة والتمتع في إقامته على الأرض.

(إِلَىٰ حِينٍ): إلى انقطاع الدنيا، وتفيد امتداد الزمان.



والآية الكريمة جمعت كل مفردات الوجود المشهود: الإنسان  
والمكان والزمان وأصول الحياة والجمال.

والآية وإن جاءت في صيغة خبرية ولكنها تُنبئُ الإنسان بمفهوم  
يترتب على استقراره في عقيدته عدة أوامر شرعية، تتعلق بمهمته في  
إعمار الكون وخلافته فيه بالحق الإلهي، فمن ذلك تشير إلى أَحَقِّيَّةِ  
بني آدم جميعاً في الانتفاع بما في الأرض جميعها بما يوفر لكل فرد  
منهم الأمن والاستقرار والتمتع بجماليات الكون المُسَخَّرِ،  
وأن يستمر هذا الانتفاع طيلة بقائه في الدنيا، وأنه هناك مقدار أولي  
يشارك فيه جميع الناس بِقَدَرٍ متساوٍ، وبناء على ذلك فلا يحق لإنسان  
أن يحتكر حق غيره في الحياة والوجود بأن يستحوذ على القدر الذي  
يُمْكِنُهُ من العيش آمناً حُرّاً كريماً، عنده ما يكفيه من المأكل والملبس  
والمسكن وبقية الضروريات والجماليات الأساسية.

٣- قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْ فِيهَا قَدْرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً

لِلنَّاسِ لِيَسْأَلِينَ﴾ [سورة فصلت، آية: ١٠].

والشاهد في الآية قوله: (سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَسْأَلِينَ). فكلمة (سَوَاءً) تشير إلى  
معاني المساواة والمشاركة، فالله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ في الأرض  
الأقوات والأرزاق للناس جميعاً، بمعنى أنها لن تضيق بهم،

ولن تعجز يوماً عن كفايتهم الغذائية، ولن تُعطي سائلاً وتمنع آخر، بل ستستجيب للجميع على سواء؛ وذلك لأنه لم تتعلق مشيئة الله أن تكون الأرزاق حِكْراً على جنسٍ دون آخر أو دُوْلَةٍ بين فئة وجماعة دون أخرى، بل جعلها سواء للسائلين.

ولم يجعل الله عطاءه في الكون مرتباً بالاختيارات العقائدية للإنسان، فالكون يعطي الإنسان بصفته إنساناً مخلوقاً لله، يعطيه على قدر جهده وعلمه، وعلى قدر موافقته لسُنن الكون وقوانين تسخيره، وليس الأمر مرتباً بإيمان أو كفر؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أراد من الإنسان أن يأتيه طوعاً مختاراً محبباً، ولو شاء سبحانه أن يُعْتَبَهُ لَفَعَلَ، أو يجبره لجراء كما جاءت غيره من الكائنات ولم يتخلف، ولكي لا تكون الحاجة إلى الطعام والشراب أو طلب الأمن دافعاً مُرغماً على الإيمان جعلها الله سواء بين من آمن به ومن كفر.

٤- وقال تعالى: ﴿وَيَنْبَغُ أَنْ الْمَاءَ فَسَمَةٌ يَنْبَغُ كُلُّ شَرِبٍ مُخَضَّرٌ﴾ [سورة القمر، آية: ٢٨].

فالماء هو أصل الحياة على الأرض، وبدونه يهلك الإنسان والحيوان؛ ولذلك وجب على الجميع اقتسامه، ولا يُحْرَم منه إنسان.

وهذا التصور الإسلامي يَبْعُدُ كثيرًا عن المعاني العُدوانية أو الاحتكارية الموجودة في المذاهب المادية، التي تُصَوِّرُ الإنسانَ مالِكًا مطلقًا ليس عليه سلطان فيما يملك، ولكن التصور الإسلامي تَشِيعُ فيه قِيَمُ الأمانة ومعاني المحبة والسلام.

وفي السنة النبوية الكثير من معاني التكافل والمشاركة بين الناس:

٥- قال ﷺ: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»<sup>(١)</sup>.

٦- وقد قضى النبي ﷺ بإشراك الناس في عهده في ثلاثة أشياء، هي: الماء والكَلَأُ والنار، وهي تمثل مصدر الحياة ومصدر الغذاء ومصدر الطاقة، فَعَنَ ابنُ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ، فِي الْمَاءِ وَالْكَلَأِ<sup>(٢)</sup> وَالنَّارِ، وَثَمَنُهُ حَرَامٌ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: يَعْنِي الْمَاءَ الْجَارِيَّ<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط»: ٣٥٦/٥ برقم (٥٥٤١)، والبيهقي في «شعب

الإيمان»: ٤٣/٦ برقم (٧٤٤٥)، وأبو يعلى في «مُسْنَدِهِ»: ٦٥/٦ برقم (٣٣١٥).

(٢) العشب رطبًا كان أو يابسًا.

(٣) أخرجه أبو داود: ٣٠٠/٢ برقم (٣٤٧٧)، وابن ماجه: ٨٢٦/٢ برقم (٢٤٧٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ لَا يُمْنَعَنَّ: الْمَاءُ وَالْكَأُ وَالنَّارُ»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ فَضْلُ الْكَأُ»<sup>(٢)</sup>.

وجاء في بعض الروايات: «النَّاسُ سُرْكَاءٌ».

والحديث الثاني والثالث يفسران الحديث الأول، بما يعني أن النبي ﷺ يخبرنا بأن الله جعل الأشياء الثلاثة مشتركة بين الناس، ولا يعني ذلك أن النبي ﷺ يوجب تقسيمها عليهم، ولكن غاية الأمر أنه يحق لكل شخص أن ينتفع منها بقدر حاجته، ويترك الباقي يذهب لغيره أو يسير في دورته في الكون.

والمشاركة تكون في أشياء كثيرة مما سخره الله للإنسان لينتفع به، ولكن الرسول ذكر الثلاثة لأهميتها، وفي روايات زاد عليها الملح، وهذا قضاء من النبي ﷺ بصفته حاكماً بين المسلمين، وكان المَقْصِدُ والعِلَّةُ من وراء هذا الحكم هو منع احتكار مثل هذه

(١) أخرجه ابن ماجه: نفس الموضوع السابق، حديث رقم (٢٤٧٣).

(٢) متفق عليه، البخاري: ٢٥٥٤/٦ برقم (٦٥٦١)، ومسلم: ١١٩٨/٣ برقم (١٥٦٦).

الأشياء الضرورية اللازمة لحياة الإنسان وغيره على الأرض، وعليه فيجوز للحاكم المسلم أن يقضي من الأحكام والقوانين التي تمنع من احتكار الأشياء اللازمة لحياة الإنسان وصلاح البيئة.

والماء خاصة لا يصبر على الحرمان منه كائن حي؛ ولذلك تَوَعَّدَ النبي ﷺ من يقوم على ماء في موطن شدة وحاجة فيشرب منه ويمنع فضله ابن السبيل، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ، فَمَنَعَهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ»<sup>(١)</sup>.

٧- والإسلام احترَمَ الملكية الفردية ومع ذلك أقر الملكية الجماعية، وجعل تنمية البيئة والمحافظة على مَدَّخِرَاتِهَا دائِرًا بين هاتين الملكيتين، فغريزة التملك والسيطرة لدى الإنسان مُحْتَرَمَةٌ ومُعْتَبَرَةٌ شرعًا، ولكن لا بد ألا تطفئ على حق الجماعة في الانتفاع بضروريات الحياة كالماء والهواء والغذاء الضروري. وقد جعل الإسلام الملكيّة -سواء كانت فردية أو جماعية- تعمل في خدمة الوجود الإنساني، فالإسلام يجعل حفظ البيئة دائرًا في مستويين من الحفظ، حفظ الفرد بصفته مالكًا أصليًا أو خليفة مباشرًا،

(١) أخرجه البخاري: ٨٣١/٢ برقم (٢٢٣٠).

وحفظ المجتمع والدولة والقانون بصفتهم مسئولين عن حفظ الممتلكات الفردية، وضمانها، وصيانتها من الاعتداء، ومعاقبة من يهدرها أو يَفْوَتْ عَلَى الفرد والجماعة نفعها.

فالملكية الفردية في المنظور الإسلامي سبيل وعامل يَحْفِزُ عَلَى حفظ البيئة من باب تحفيزه عَلَى العمل والإتقان، ويتضح لنا كيف استخدم النبي ﷺ الملكية الفردية في تنمية البيئة وزيادة كفاءتها وعطاؤها للإنسان، حيث قال ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِزْقِ ظَالِمٍ حَقٌّ»<sup>(١)</sup>.

وَالْأَرْضُ الْمَيْتَةُ هِيَ الَّتِي لَمْ تُعْمَرَ، سُبِّهَتْ عِمَارَتُهَا بِالْحَيَاةِ وَتَعْطِيلُهَا بِالْمَوْتِ.

وفي هذا الحديث احترامٌ للعمل وتحفيز عليه، وتقدير للمجتهد ومكافأته، وفيه جعل الملكية الفردية دافعاً للأفراد إلى التعمير والبناء.

(١) أخرجه أبو داود: ١٩٤/٢ برقم (٣٠٧٣) والترمذي: ٦٦٢/٣ برقم (١٣٧٨) بهذا اللفظ عن سعيد بن زيد، وقد أخرجه البخاري: ٨٢٣/٢ برقم (٢٢١٠) بلفظ: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهِيَ أَحَقُّ» عن عائشة، وأورد تلك الزيادة: «وَلَيْسَ لِعِزْقِ ظَالِمٍ فِيهِ حَقٌّ» عن عمرو بن عوف تعليقا.